المرأة في معركة النهضة

هيثم مناع

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الجمل

الرفوف

٨٤

هيثم مناع

المرأة في معركة النهضة

الى بنت الجزيرة

المرأة في معركة النهضة

مشوار الحرية

لم تكن مهمة هند نوفل البيروتية المولد الاسكندرانية الاقامة بسهلة عندما اصدرت في 20 نوفمبر 1892 مجلة «الفتاة»، أول مجلة للمرأة باللغة العربية معلنة في العدد الاول: «المبدأ الوحيد للمجلة: الدفاع عن حق المرأة المسلوب». الا ان المواجهة مع التقاليد الابوية ستكون على اوجها مع قاسم امين (1863 ـ 1908) عند اصداره اول كتاب باللغة العربية حول تحرير المرأة في 1899. المجتمع التقليدي وتعبيراته السلطويّة المختلفة سيقف بكل قوة في وجه قاسم امين الذي تابع مسيرته بجرأة مصدرا كتاب «المرأة الجديدة» بعد عام مستهينا بصيحات الهجاء والعداء: المرأة ليست ناقصة عقل.. إلغاء تعدد الزوجات ضروري لتقدم المرأة وحريتها ودخولها الحياة الاجتماعية ونزع الحجاب اساس لتقدم المجتمع.. حرية المرأة اساس جميع الحريات الاخرى ومعيار لها، فعندما تكون المرأة حرة، يكون المواطن حرا. بهذه المقدمات الاولية، دشّن قاسم امين مطلع القرن العشرين بدعوة المرأة العربية الى مسرح التاريخ كطرف اساسي في صنعه لا كموضوع فيه.

روزا انطون (شقيقة فرح انطون) ستتابع الجهود الصحفية النسوية لهند نوفل واسكندره خورى باصدار «مجلة السيدات والبنات» في ابريل 1903.

في نفس العام الذي توفي فيه قاسم أمين، وصل الى باريس منصور فهمي (1886 ـ 1959) لتحضير اطروحة دكتوراه حول المرأة في الاسلام يتتبع فيها اهمية الظروف الاقتصادية ـ الاجتماعية والسلوك الشخصي للنبي محمد في نشوء وتبلور التشريع الاسلامي لعلاقات الجنسين في اول نقد معاصر جرئ لموقف الاسلام من المرأة. (الاطروحة التي صدرت كتابا بالفرنسية 1913 ولم تجد مترجما وناشرا بالعربية لها حتى اليوم؟). في هذا

الوقت (وبالتحديد في 1910) يصدر سلامة موسى (1887 ـ 1958) كتاب «مقدمة السبرمان»: «لم تنكب امة في العالم بمثل ما نكبنا به من حجاب المرأة... لقد نزل الحجاب بالمرأة من مستوى الانسان الى حضيض الحيوان.. والحق أننا نعيش الآن في العالم وكأننا في محجر بمثابة المجذومين لا يمسهم أحد».

قضية المرأة، التي سيخلص لها سلامة موسى حياته كلها، سيجد في مشواره الطويل معها أنصارا لها من النساء والرجال. حيث ومنذ الحرب العالمية الاولى، لم تعد حرية المرأة رهنا برواد لا يتعدون أصابع اليدين مع دخول عدد من النساء أنفسهن الصراع من أجل الحرية والمساواة.

مجلة «السفور» ستنتصر لقضية المرأة في مصر طوال الحرب العالمية الاولى. هدى شعراوي (1879 ـ 1947) تدخل تاريخنا المعاصر كمناضلة وكاتبة نسوية رائدة. في 1923 تشكل هدى مع عدد من النساء أول منظمة نسوية عربية في مصر: **الاتحاد النسائي**. في نفس العام تباشر نبوية موسى (1888 ـ 1951) في الاسكندرية اصدار مجلة «ترقية الفتاة». وفي حين ستنقل هدى شعراوي صوت المرأة العربية الى مؤتمرات النساء والسلام العالمية تضع نبوية موسى لمسات أول كتاب بالعربية حول «المرأة والعمل» معلنة فيه:

«انا اذا لم نعلّم الفتاة الا ما يتعلق بأعمال المنزل، فقد أعدمنا مواهبها العقلية ونزلنا بها من درجتها الى مرتبة الخادمات... ان الامة لا تنتج الا اذا كانت نشيطة عاملة، ولا تكون نشيطة ما دام نصفها أشل لا حياة فيه».

في 1925 تصدر منيرة ثابت (1902 ـ 1967) صحيفة «الامل» بالفرنسية والعربية مقدمة لها في أول عدد تحت عنوان (أملي): «ان صحيفة الأمل هي صحيفة الدفاع الحق عن حقوق المرأة المصرية، اواصل فيها اليوم مهمتي التي بدأتها بالامس: مهمة الدفاع عن كل حق مهضوم من حقوق المرأة». وتخوض الامل معركة مشاركة المرأة في الانتخاب

SCANNED BY JAMAL HATMAL

والترشيح والوزارة وكل مجالات الحياة العامة، داعية الى الغاء بيت الطاعة «الغاء كليا يقضي على اثره ونتائجه». من أعمال منيرة ثابت العديدة كتابها «دفاع عن حقوق المرأة العربية». في الوقت الذي صدرت فيه «الامل» في مصر، تقوم مجموعة من النساء في سورية ولبنان بتاسيس أول منظمة فيهما للدفاع عن حقوق المرأة تبرز في قيادتها نازك العبد بيهم.

العديد من المجلات والصحف تتبنى قضية تحرر المرأة كشرط للانعتاق الاجتماعي، نذكر للمثل لا للحصر، «الانسانية» في سورية ولبنان، «العصور»، «المجلة الجديدة»، «التطور»، «الجماهير» الخ في مصر. المرأة تدخل، ولو بشكل محدود مرافق الحياة المجتمعية المتعددة رغم تعالي صرخات التقليديين والسلفيين.

كان رواد النهضة خصوما لدودين لعصور الظلمات ومخلفاتها، ولم يقبلوا بمهادنة الطغيان السلطوي الذي كبل الاجيال التي لحقتهم والمتسمة بضيق الافق ومحدودية الطموح الناجمين عن عبودية المهادنة. ومع اجهاضة مقومات النهضة تحت مطارق الاستعباد الخارجي والاستبداد الداخلي، تمت محاصرة جدل التنوير في مطلعه، ودفعت المرأة العربية غاليا ثمن انبعاث الاستبداد في الواقع وفي الرؤوس. كون الاستبداد بطبيعته ومقوماته أبويا بعث قهر الدولة الغيبية السلفية كعنصر مكمّل له. حيث ينتج نمط الحياة البائس أناسا عاجزين الا عن يفكروا بطريقة بائسة. الرجل العربي، عوضا عن ان ينتقم من قامعيه، يعزز قمعه لزوجته وابنائه، وعوضا عن مطالبته بالحرية في مجتمعه، يؤصل العبودية في بيته، وكأنه يعوض وجوده القمعي بتعميم أو البيات القمع من حوله. مدعوما بمنظومة القيم السائدة ومؤيدا من جملة الحركات الرجعية.

المرأة العربية تحاصر اليوم في خطوة محدودة خطتها نحو الخروج من العبودية، لتعود الى الساحة عبارات عصور الانحطاط: (تحرر المرأة كفر وحريتها خلاعة الخ).

ولكن اذا كان بامكان قطاع من السياسيين - الرجال وضع قضية المرأة على الرف ضمن قوانين العرض والطلب التكتيكية (؟) فالقضية تعني بالنسبة للمرأة وجودها بحد ذاته، حيث اي مهادنة في حريتها لا تعني تراجعا عن خطوة، بل تنازلا عن انسانيتها.

من هنا، لا يأتي استرجاع تراث النهضة المتنور للتوقف عنده، بل لاستيعابه واستلهام محاوره الخلاقة ليكون سلاحا في معركة التحرر التي ما زالت في بدايتها. حيث من الضرورى تبني جملة التراكمات الاولية لنضال الاحرار من النساء والرجال من أجل المساواة بين الجنسين تبنيا نقديا واعيا لنقاط الضعف ومشددا على نقاط القوة معززا ومغنيا لها. فتراث الطغيان الابوى يعشعش في رؤوس الاغلبية من الرجال والنساء، ووعي المرأة لقضيتها حاسم في وضع حد لهذا الطغيان.

ooo

«نساء» عدد 4 نوفمبر 1985

إشكالية الغرب

لم تولد النهضة في رحم تغيير عاشه المجتمع العربي بأولياته الداخلية، وانما في سيرورة عملية اغتصاب غير كاملة، تعرض لها هذا المجتمع باتصاله بالغرب. الغرب الذي لم يدخل العالم العربي محررا، بل دخله مهيمنا بالبضاعة والمدفع والمطبعة: رموز البرجوازية الغربية المتجسدة في الثورة الصناعية، الاستعمار بأشكاله المتتابعة وعصر التنوير.

أدى تغلغل عناصر المنظومة الرأسمالية، بما فيها تعبيراتها المؤسساتية، العلمية ـ التقنية والثقافية، الى خنق التركيبات الاجتماعية ـ الاقتصادية ما قبل الرأسمالية واعادة تكوينها بشكل تبعي وهش. الامر الذي وجه الصفعة الاقسى الى الوحدات الانتاجية ما قبل الرأسمالية المحلية، زراعية كانت او حرفية، هذه الوحدات القائمة على العمل العائلي الابوى الذي يستعمل قوة عمل المرأة بوصف الاخيرة قنية الاهل والعصبة.

وقد نجم عن هذا التغيير تذرير العشائر الكبيرة دون ان يجرى تمزيق العصبات القاعدية في تكوين القرابة العربية، وفرز العديد من الاسر الاولية مع زيادة الهجرة من الريف الى المدينة، كذلك تفريد قطاعات واسعة من السكان مع انهيار الحرفة التقليدية ونشوء المهن «الغربية» في المدن.

هذه التحولات المجتمعية فتحت المجال أمام فئات اجتماعية محلية لدخول سوق العمل، رغم المحظورات التقليدية العائلية، التي حصرت عمل المرأة في المنزل والمنشأة الحرفية ـ العائلية. فيما سمح لقطاع من النساء بمزاولة التعليم والطبابة والصحافة والعمل في بعض المصانع والوظائف الحكومية كعمل فردى مأجور.

ففي بادىء الامر، كان دخول المرأة سوق العمل في المدينة العربية، النتاج السلبي والتعسفي لسيرورة ولوج الهيمنة الرأسمالية الغربية في أعماق المجتمع العربي، ولم يكن وليد تحولات عميقة هزت هذا المجتمع معيدة صياغة طبيعة العلاقة بين مكونيه الاساسيين: المرأة والرجل. ـ هذه الواقعة، لا تعني بحال، ان قضية تحرر المرأة، قضية دخيلة. او ان مصير المرأة العاملة العربية ان تكون عنصرا مكملا من عناصر دونية التشكيلة الرأسمالية التابعة. حيث نجدها، وباختلافات قليلة، في معظم البلدان ما قبل الرأسمالية، الامر الذي لم يمنع المرأة السوفيتية مثلا، من الحصول على حق المساواة مع الرجل في العمل والقانون قبل نظيرتها البريطانية، بعد ان كان دورها في التغيير الداخلي اثناء وبعد ثورة اكتوبر حاسما؟ وبالمقابل، فان النموذج التوتاليتارى الديني، بتعبيريه السني ـ الوهابي والشيعي ـ

الخميني، لم يحل في الجزيرة العربية وايران دون استمرارية الطابع السلبي لهذا الدخول عند اقلمته الكاريكاتورية له مع الظلامية المناهضة للمرأة عبر فصل تعليم وعمل الجنسين وفرض الحجاب بالقوة ؟ ؟ ـ .

عاد المجتمع العربي الى حلبة التاريخ مغتصبا، وعادت قضية المرأة عبر زاوية حادة مسيّجة بالأشواك. ولم يكن دخول قطاع نسائي اطار الاشكال الجديدة للعمل على بساط من حرير، تقول احدى معمّرات هذا الجيل: «في كل مرّة كانت المرأة تنزع فيها الحجاب وتخرج من البيت، كان ذلك في اطار معركة تخوضها من أجل العام: الوطن، التحرير، العمل لانقاذ اهلها من العوز، او التعلم لانقاذ محيطها من الجهل. ولم يكن الرجل والاهل في جانب المرأة الجديدة الا فيما ندر». كان من الترف ان تطرح المرأة قضيتها ككائن انساني في ذاته ومن أجل ذاته.

تقودنا هذه المسألة الى الجانب الاخر المتعلق مباشرة بالوعي، والذي يمكن الاطلالة عليه عبر تتبع «تغريب» فكر النهضة.

كانت الجرأة، أهم مآثر رواد النهضة. الجرأة على كسر احتكار العلماء السلفيين للمعرفة، الجرأة على الانفتاح على الثقافة العالمية، الجرأة في تبنّي افكار يعتبرها المجتمع هرطقة والمشايخ كفرا. الا ان النهضة لم تواصل مسيرة التنوير، متوقفة عند تحويل الافكار والنظريات المطروحة في المخبر الاجتماعي ـ الثقافي في الغرب، وفي معمعان تناقضاته وصراعاته الى ايديولوجيات. متعاملة مع الدارونية، الاشتراكية، الحداثة الخ بوصفها وصفات جاهزة لامادة استعمال تتطلب **عملية اعادة تعرّف نقدية صارمة تسمح بانتاج معرفي ينبع مباشرة من الصراعات المعاشة.** وقد انعكست هذه المسألة على قضية المرأة ونضالاتها، كون جملة القضايا التي طرحها الرجال والنساء الذين تبنوا قضية المرأة قد طرحت من منظار مستقبلي تبسيطي، اي ضمن اعتبار الغرب مجتمع الغد العربي. وبالتالي، التركيز على القطاع المندمج في التحولات الرأسمالية بوصفه الأنموذج، دون تتبع طبيعة التحولات هذه، تعددية احتمالاتها، وامكانية تأقلمها مع التركيبة التقليدية الخ. فقلما جرى التعرض لسلطة العائلة (مالكة نسائها) التي فاقت في نواح اساسية سلطة القانون باعتبارها هي العرف ـ القانون، ولا نجد في كتابات جيل النهضة حيزا عن زواج ابن العم الالزامي، في الوقت الذي يجرى الحديث فيه عن حق المرأة في التصويت. وترفض نساء رائدات عدة طرح قضية المرأة والارث في الوقت الذي طالبن فيه للمرأة بالوزارة. وتعج الكتابات بحرية المرأة اطلاقا، دون التعرض لكون غشاء بكارتها اغلى من حياتها في منطق العلاقات الاجتماعية الاوتوريتارية، حيث مازال «غسل العار» أرفع شأنا من غسل صدأ الدماغ. ويتم بسهولة استيراد حلول لمشاكل غير موجودة عوضا عن تشخيص مشاكل فعلية واقعة فيما يفتح الافاق لحلول الخ الخ.

هكذا، طرحت العديد من

مشكلات المرأة في تراث النهضة من منظور عام، دون الدخول في حقيقة واقع المرأة العربية، التي وان شاركت المرأة في المجتمعات الاخرى الاضطهاد الابوى، فهي تعاني من تعبيرات ظلامية محلية تراكمت عبر تاريخ طويل، وافرزت طغيانا ابويا متمترسا في كل خلية من خلايا المجتمع، وفي كل عرف من اعرافه. حيث سلطة الرجل كالإله، موجودة في كل مكان. لذا، ليس من الغريب، ضمن محدودية تأثير الخطاب الايديولوجي في قضية المرأة، ان يصبح هذا الخطاب نفسه، لاحقا، جزءا من فصاحة الحكام.

كان من نتائج هذا الوضع، فصل النخبة النسائية الجديدة عن الاكثرية النسوية في المجتمع. فيما حدد رفد النخبة من الاغلبية بعوامل موضوعية غالبا. تعبّر الكاتبة مرزية القوتلي عن هذه النخبوية بالقول: «في مصر نهضة نسائية في الادب والاجتماع، لكنها أضأل بكثير مما كنت أصوره لنفسي قبل سفرتي الاخيرة الى ديار النيل، فما في بضعة الملايين اللواتي يؤلفن نصف سكان مصر، سوى بضعة اسماء تكاد لا تتعدى أصابع الكف عددا، انحصر الادب بهن وحديث الادباء عنهن، وكلما عن لأديب او اديبة او مجلة او صحيفة ان تلتفت الى النهضة النسائية لفتة ما، لم يجد أمامه سوى الوجوه نفسها.» (الاصداء، العدد 28، 1945).

اذا استبدلنا مصر بالعالم العربي وقتئذ، لا نكون قد جاوزنا الحقيقة. لاكمال شوط الجرأة، جرأة الطرح وجرأة المحاولة، ميزة النهضة المجهضة، يقف الخطاب النقدي المسلح بالتحديد العياني، الحقيقة والوضوح، باعتباره الشرط الاساسي للخروج من الحلقة المغلقة للاستحواء السلطوى بمختلف تعبيراته لجمل وشعارات أصبحت مؤرشفة في سجلات القامع والمقموع سواء بسواء.

«نساء» عدد 5 ديسمبر 1985

التاريخ الاجتماعي

في كل مجتمع، ثمة ماض رسمي وماض فعلي. ثمة تاريخ صنعته المؤرخة للملوك (باستعارة تعبير ابن عربي)، وتاريخ عاشته الملوك والشعوب. وكون الميت في المجتمعات الاسلامية قرين الحي، تشكل معرفة التاريخ الفعلي عنصرا اساسيا من عناصر معرفة الذات. ان احدى سلبيات الراديكالي في جيل النهضة المجهضة، عدم استقراء واستكشاف التاريخ الاجتماعي العربي، في حين كان من الطبيعي ان تقوم العناصر السلفية بالتعريف على التاريخ الرسمي بوصفه التاريخ.

حتى اليوم، لم تتم بعد كتابة متكاملة جدية للتاريخ الاجتماعي العربي ـ الاسلامي، وما زالت العلاقة بتاريخ الاوضاع الاجتماعيّة علاقة اجتزائية وجزئية، تخضع لقراءات اسقاطية لمجتمعات اخرى عليه احيانا، وقراءات فقهية تعتمد اسقاط طهرانية ايديولوجية مفترضة تمسح المثالية على معتقداتها واتباعها، وتمسخ بالتزوير الخارجين عنها. اي، تلغي اعتباطيا وقائع الصراع الاجتماعي خدمة للمعتقد.

الا ان العلاقة بين الجنسين لم تكن في يوم من الايام علاقة نصية او فقهية، وانما أولا، وقبل كل شيء، علاقة بشرية معاشة. تتكون منها وعبرها، منظومة القرابة في المجتمع، واشكال تقسيم العمل وعلاقات الانا بالنحن والاخر والبنى الاوتوريتارية بين ـ الافراد والجماعات الخ. الامر الذي يسهم في تحديد طبيعة وتمفصلات انتاج الانسان، انتاج وسائل الحياة ومنظومة القيم السائدة في المجتمع من جهة، ويسمح بتتبع محاور الاستمرارية والتغير فيه عبر التاريخ.

لنأخذ جانبا من جوانب اشكاليات استقراء التاريخ الاجتماعي العربي: مصادر الثقافة التاريخية. بالخطوط العامة، ثمة تعبيرات ثلاثة للنسيج الثقافي في المجتمع: الثقافة الرسمية، الثقافة الشعبية والثقافة المناهضة للتعبيرات السلطوية السائدة. على امتداد مراحل التاريخ العربي ـ الاسلامي لم تجد الثقافة المناهضة مكانا للتعبير عن موقفها في اطار الفرعية، كون علاقة الدين والدولة بخصومهما علاقة تصفوية. ففي اطار بنى توتاليتارية لا تتحمل الاختلاف والتعدد، وتعجز عن تحييد نقادها ومناهضيها دون اللجوء الى العنف، لا يمكن التعرف على الرأي المناهض الا في ارشيف خصمه الحاكم وكتابه من اخصائيي الملل والنحل والاباحة والبدع والمعاصي الخ. أو باستنطاق المواريث الشفوية بحثا عما انقذته الذاكرة الجماعية من مقصلة اعدام المكتوب؟ سؤل الشاعر الحطيئة عند نزاعه مع الموت (في العقد الثاني للهجرة): «ما تقول في مالك؟ قال: للانثى من ولدي مثل حظ الذكر. قالوا له: ليس هكذا قضى الله، قال: لكني هكذا قضيت.».

وفي نقده لتعدد الزوجات يقول أبو العلاء المعرى (973 ـ 1057م):

تزّوج بعد واحدة ثلاثا
وقال لعرسه يكفيك ربعي
فيرضيها اذا قنعت بقوت
ويرجمها اذا مالت لتبع

قد تبدو هذه الاقوال للبعض صيحة في واد، أو استباقة عصر. أما ان يسجل المرء تجاوز المجتمع القرمطي مشكلات المرأة في الاسلام بشأن تعدد الزوجات والحجاب والارث وعلاقات الجنسين خلال قيامه (من 899 الى 1076م)، وأين؟ في قلب الجزيرة العربية. فإن هذا الكلام صعب التصديق عند الكثيرين. وقلة من ابناء المغرب العربي يعرفون بأن الموحدين (الدروز) العرب يمنعون تعدد الزوجات منذ نشأة مذهبهم (1017م)...

«المساواة سرعة غربية لا علاقة

لها بتاريخنا وقيمنا»، يقول احد الاسلاميين. لن نأخذ مثلا راديكاليا. حسبنا ان نذكر بموقف الجاحظ (مات 869م): «لسنا نقول، ولا يقول أحد ممن يعقل ان النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر، ولكنا رأينا أناسا يزرون عليهن اشد الزراية ويحقروهن اشد الإحتقار ويبخسوهن أكثر حقوقهن». لن نجد موقفا كهذا عند رشيد رضا المعتبر مصلحا في هذا القرن؟ الا ان من المفيد الاشارة الى ان الجاحظ لم يخرج عن المألوف الاسلامي اكراما لعيون النساء، وانما لان رجالا ونساء قد خرجوا عن هذا المألوف فعلا في حياتهم.

لقد ورثنا تاريخا رسميا مزورا وكاذبا، والمصيبة انه يحكمنا ويتحكم بنا الى اليوم.

طرحت في مرحلة الازدهار العربي - الاسلامي، التي توجت بقيام المجتمع القرمطي في شرقي الجزيرة العربية، العديد من مشكلات المرأة: الحجاب، الاختلاط، العبودية، الوصاية والارث والمهر، تعدد الزوجات، اللذة الجنسية عند المرأة الخ. وقلما يشير المؤرخون الى كون الهيمنة العقيدية وعصر الانحطاط صنوان، قلما يقولون ان عصر الازدهار انما سمي بذلك لوجود فلاسفة وتيارات عقلانية وراديكالية مناهضة للارثدوكسية الدينية، وقلما يجري الحديث من قبل الظلاميين عما فعل اسلافهم بأصحاب البدع ؟؟ الخ. ولكن التاريخ، رغم كل عمليات التدمير المنظمة التي تتعرض لها معطياته، يترك لنا باستمرار علامات تساعد على اعادة استنطاقه.

في هذا التاريخ، نجد واقع المرأة بأشكاله الخانعة القابلة بالدونية، نجد اساليب القمع الرجالي المعممة في السلوك، وايديولوجيات الطاعة وشعائريات الخنوع، كما نجد كل ردود الافعال العفوية على هذا القمع من اتخاذ الاخدان (العشاق) الى السحاق. كذلك الاشكال الرافضة الواعية المناهضة للقهر النسائي. فيه نتعرف على اصدقاء المرأة واعدائها، فيه نجد المرأة الخارجية تقطع ايديها وارجلها وتعرض جثتها عارية في الاسواق لقيامها على الخلافة (حيث لا يعتبر جسدها في هذه الحالة عورة ؟؟) فيه نجد جهيزة وفراشة وام حكيم والفارعة وهند المزنية وليلى الناعطية وقرة العين الخ من النساء المتمردات على قوالب العالم الابوى.. هذا التاريخ، قلما كتب عنه المؤرخون، وقلما يحدثنا السلفيون عنه.

معرفة التاريخ الاجتماعي العربي ضرورة ملحة، لا ليكون حكما. بل للتخلص منه حاكما في حياتنا الحاضرة. لا للاستنجاد به مخلصا، بل لوضع حد للاستنجاد به في صيغته الرسمية، والتعرف على شجرة انصار المساواة فيه، بوضعهم في مكانهم وزمانهم، اي عبر تجاوزهم، لا عبر التوقف للتغني على اطلالهم؟ ليس للاستسلام للماضي، بل لتسليح قطيعتنا مع جذور الظلامية فيه، بنشر غسيلها المشين على الملأ.

«نساء» عدد 6 جانفي 1986

ازدواجية المجتمع وازدواجية المثقف

من اهم المشكلات المجتمعية العربية، الازدواجية الحياتية المُعممة، هذه الازدواجية التي ترسل بجذورها الى اعماق التاريخ، مازالت قائمة بكل عُنجهية في اركان الحاضر.

ليس بالامكان التأكيد على تعمم هذه الظاهرة في المجتمع العربي ما قبل الاسلامي، الا انه من المؤكد انها قد وجدت تربة خصبة في طبيعة النظام الاسلامي والايديولوجية الاسلامية (التي تعتمد الثنائية كأساس للتصور واهم ثنائياتها ذات التأثير الاجتماعي المباشر الايمان والكفر، الاسلام والجاهلية الخ). ولا يمكن للتصور الثنائي ان يكون سببا مباشرا في ممارسات ازدواجية مجتمعية، الا في حال صيرورته سلطة سائدة، الامر الذي يعني دخول القمع كعامل اساسي في نشر الايديولوجية وتطبيقها. فمن المتفق عليه ان احدى اولى مترتبات صيرورة الاسلام دين ودولة قبل اربعة عشرة قرنا، ظهور مصطلح المنافق (اي: ازدواجية اعلان قبول الامر الواقع وابطان رفضه)، ففي اي مجتمع سلطوي توتاليتاري تفرز العلاقات السلطوية السائدة ازدواجية حياتية في وجود الافراد والجماعات، ازدواجية متعددة الاشكال، تشكل في تعبيراتها الرد فعلية جزءا من اواليات التعويض بالخروج المستتر عن منظومة القيم والعلاقات والقوانين السائدة، وفي صيغ الاستتابة جزءا من اواليات رجعة التأقلم معه، حيث في الحالتين ثمة اثنين في شخص واحد. الأمر الذي لا يحل دون وجود اشكال واعية للفصام بين القول والعمل فيما يسمى بالانتهازية، التي ليست فقط في السلوك السياسي، بل في المسلك العام في حياة الانسان.

في بعض البلدان العربية، تعني ممارسة الجنس خارج الزواج الرجم للمتزوج والجلد للاعزب. وتشمل عقوبة الخمر بائعه وحامله وشاربه وصانعه الخ. الامر الذي لا يمنع من وجود نسبة عالية من المصابين بالقرحة من جراء شرب الكحول الرديء رغم عدم وجود احصاءات متناسبة بالعقوبات. ويلاحظ المراقب ان نسبة افلام الفيديو الجنسية في هذه البلدان المكبوتة بجهازها الديني مرتفعة جدا.

حيث المجتمع السري يعايش الطهرانية المعلنة رغم الصرامة في تطبيق الاحكام. فكلما اتسم النظام بالقمع الشمولي الذي يمس تفاصيل حياة الانسان في بلد من البلدان، كلما اتسعت ظاهرة الازدواجية الاجتماعية، وازدادت البراعة في ممارسة هذه الازدواجية، بحيث تصبح من مقومات الحياة اليومية.

ولا تقف هذه المسألة عند المسلك الشخصي والحريات الشخصية، وانما نجدها ايضا في حال الاختلاف مع السلطة السائدة. فالباطنية، كحركة اجتماعية ـ سياسية، باختلاف تعبيراتها وتباينها، شكل من اشكال الازدواجية الاضطرارية في مجتمع لا تسمح الدولة فيه بتعدد الرأي واختلاف المعتقد. وتتعدى هذه الازدواجية حدود الحركات الى المؤسسات لنجدها في التقية الشيعية مثلا وفي امثلة عديدة لحكام ائمة للناس في الحج والمسجد، وللعهر في قصورهم.. الخ.

ولأن في الازدواجية المجتمعية جانب انتهاكي للاعراف المعلنة، فانها تخضع لقواعد متعارف عليها بغية تحجيم وتأطير تأثيرها ودورها، اعراف تزاوج العنف والنفاق، الترهيب والترغيب، وتقوم على مبدأ التعمية على الخاص لضمان العام استنادا الى قاعدة «اذا بليتم بالمعاصي فاستتروا» و«يا ساتر الستر استرها وما تفضحهاش»، بوصفها الضابط بين عنف الحدود والعقوبات والعلاقات من جهة واستمرارية هذا العنف نفسه، من جهة ثانية.

وقد نبه عبد الرحمان الكواكبي (1854 ـ 1902م) لهذه المسألة، وتناولتها نوال السعداوي في

معرض حديثها عن الكذب حيث كتبت: «الكذب... يحدث انفصاما بين حقيقة المراة (والرجل ايضا) وبين ما تتظاهر به امام الناس. والانفصام يحدث في الاسرة ايضا. فيصبح للانسان حياة اسرية ظاهرية هي علاقة الازواج بالزوجات الظاهرية، ثم حياة اخرى خفية هي علاقة الازواج بالعشيقات او الزوجات بالعشاق ويحدث الانفصام في المجتمع ايضا، فاذا بالتناقض الواضح بين القيم الاخلاقية والدينية وبين القيم التجارية والاقتصادية. على ان المراة اكثر تعرضا لهذا الانفصام من الرجل، بسبب المحظورات المفروضة اكثر على المراة. ولهذا تتمزق شخصية المراة الى عدة اجزاء، ويتناقض كل جزء مع الاخر...».

والكذب كظاهرة هو، اولا، نتيجة وجود عدوان يبعث على الخوف. عدوان قمعي في الاسرة والمجتمع، عدوان استغلالي في العلاقة بين البشر وعدوان هيمنة بين الافراد وبين الجماعات. هذا العدوان ينتج الكذب بوصفه السلاح الاعوج للعاجز والسلاح الاوحد للمعتدي. وفي حين يشكل القمع اهم مصانع انتاج الكذب والنفاق والازدواجية، يشكل الخوف اهم العوائق الذاتية امام انطلاقة الانسان لكسر مصادر العدوان المختلفة الواقعة عليه.

والانتلجنتسيا العربية، منذ نشأتها، عبر توسع المؤسسة الثقافية الرأسمالية الغربية، تعيش الازدواجية في تكوينها وممارساتها ومواقفها بوصفها نتاج وضع تبعي مزمن، لم تستطع ان تحل اشكاليته منذ مطلع النهضة الى اليوم. فهي بحكم نشأتها في تعارض مع الرموز المعرفية ما قبل الرأسمالية، وبحكم احترافها تحكم النظر في رضى السلطة السياسية، ونتيجة لوضعها اللاتاريخي، تبحث بأي ثمن عن الشعبية، بالمعنى الرديء للكلمة، اي تجنب ما هو مزعج عند الحاكم والمحكوم (احدهما او كلاهما).

تعطي حالة منصور فهمي مثالا لذلك، حيث ومع عودته الى مصر واشتداد هجوم التقليديين عليه، الامر الذي منعه من التعليم الجامعي والعمل، يقدم

فهمي اعتذارا عما جاء في اطروحته كي يتمكن من كسب عيشه وايقاف حملة الرجعيين عليه. بعدها سيخبو نتاجه ويتحدد عطاءه بالظروف الجديدة. ويقدم كامل الكيلاني مثلا آخرا باعتذاره عما ترجمه لبندلي جوزي وكأنه ارتكب جرما كبيرا. كذلك تراجع اسماعيل مظهر اكثر من مرة عن كتابات له دون ان يكون مقتنعا بذلك الخ.

من جهة ثانية، نجد العديد من المدافعين عن المراة يستثنون زوجاتهم واخواتهم، ولا نستغرب من داعية الى السفور ان يطلب من زوجته الركون في البيت، ومن طالب للمساواة ان يحاسب ابنته على حركاتها، حيث نظرة المجتمع المثقف ـ الرجل، اهم من آرائه ومواقفه (؟).

والتناقض الصارخ هذا بين القول والممارسة، يتعمم ليشمل الخطاب نفسه والاعمال نفسها، حيث المطالبة بنهضة عربية تتعايش مع اعتبار العادات والتقاليد من مقوماتها، والتوفيق والتوازي بين السفلية والتجديد يجريان بعناية فائقة تحسبا لاثارة المشاعر (مشاعر من؟). وحيث في المجتمع العربي اسطورة «اثارة المشاعر» اقوى من اسطورة الراي العام في الغرب، يمكن ان نطمئن الى ان الرقابة الذاتية عند المثقف توازي، ان لم نقل تفوق، رقابة النظام؟

في عالم تتداخل فيه منظومة القيم والايديولوجية الدينية والقانون ويلتقون فيه على قهر المراة، لا تجد الافكار التحررية المساواتية استقبالا سهلا من قلاع العالم القديم، ومن هنا تاتي الممارسات المنسجمة معها كركن اساسي من اركان مصداقيتها. ما ياتي من فوق، يذهب مع الفوق الذي اتى به، وتكسير الاخرين لصخور عصورهم الظلامية لا يعفينا من مهمتي التنوير والتغيير.

في هذا المشوار، تجسم عبودية المراة العربية اشكال العبودية المختلفة في المجتمع العربي، وفي قضية المراة، مقياس تحدي هذا المجتمع لذاته، لعاداته وتقاليده، لاستلابه الديني، لعشائريته وعصبياته، ولاشكال الاستبداد والاستغلال والهيمنة المترعرعة فيه.

حرام الشؤم

«ياحرام الشؤم!!». . جملة عامية معروفة، نسمعها من العجائز مع كل تجاوز للحدود في مسألة الحلال والحرام. فاختراق المحرم يولد الشؤم لأهله ويجلب العقوبة: قد يسقط جدار المنزل على ساكنيه، او يموت احد افراد العائلة قصاصاً. . قد تقع المصيبة اليوم، غداً او بعد غد. . وان لم يحدث شيئاً فترقبوا، فالله يمهل و لا يهمل!. حالة الطوارىء النفسية هذه، قديمة قدم الاعتقاد. فقد عرف المجتمع العربي ما قبل الاسلامي المحرّم، وكانت المرأة موضوعاً فيه. الا ان الله لم يكن سببه عرفاً كان ذلك او اعتقاداً.

ومع استمرارية مفهوم المحرّم في الاسلام، نشهد افتراقاً واضحاً لهذا المفهوم عن ما يعرف بالتقيدات التابوية من جهة، وعن المحرم العربي ما قبل الاسلامي بطابعه القبلي الداخلي من جهة ثانية. ففي اقل من خمسة عشر عاماً قام الاسلام كدين ودولة بالمعنى الشمولي الذي طرحه، اي امة تحتكم للاسلام في طريقة حكمها ومعيشتها وشعائرها وسلوكياتها الخ. هذا المبدأ المعلن وان لم يتحقق بالضبط تبعاً لحاكمية النص، حقق تشرباً وتداخلاً سريعاً للاعتقادات ما قبل الاسلامية مع المعتقدات الاسلامية تم التعبير عنه بأسلمة هذه الاعتقادات داخل او خارج اطار الشريعة والفقه، وجهل الدولة على صلة بالدين. وهكذا استمر مفهوم الحلال والحرام مع الاسلام منطبعاً بالشمولية وبصلة مع النواهي والمحظورات والاحكام والحدود. وكون الاسلام قد اقرّ المرأة موضوعاً للحرام، فقد تأصلت هذه المسألة في الاعتقادات الشعبية المؤسلمة، عند الفقهاء والاسلاميين، وفي الدولة حالما تعلن الاسلام مرجعاً او مصدراً لتشريعها. تكمن قوة المحرّم في كونه يجمع السلطات الثلاثة: العائلة والدين والدولة. فهو ذو مرجع الٰهي ودنيوي، بخلاف التابو. والاحساس بالذنب فيه ذو صلة بعقوبة الذنب. وهو بآن معاً مجهول وملموس، متعارف عليه ومقونن، بديهي ومعقلن، تربوي وعقابي، دنيوي وغيب الخ. ومن هنا فهو اعتقاد وتشريع ومؤسسة. (واقفية الصواعق تحمي الانسان من الصاعقة، وبالتالي تقزّم اسطورة الخوف منها. في حين ان العقاب المؤسساتي لا يفعل الا ان يؤكد الخوف من اختراق الاسطورة).

يعرف الازهري الحريم بقوله: «الحريم الذي حرّم مسه فلا يدنى منه». ويقول ابن منظور في الحريمة: «ما فات من كل مطموع فيه». ويعبر رواة الحديث عن صلة المحرم باللمس وشهوة المرأة بالقول: «لأن يزحم رجل خنزيراً ملتطخاً بطين او حمأة، خير له من ان يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له».

تتكفل التربية الاجتماعية التقليدية بتشريب الطفولة اسس الترهيب والترغيب المؤصلة للمحرّم باعتبارها الرادع النفسي والزاد الثقافي لقبول اعتقادات الآباء في البيت والمدرسة، وما أكثرها في علاقات الجنسين. وكون القواعد تشمل مكوناً يجمع القرآن والحديث والفقه والعرف والامثال والقانون. . فهي مزيج تراكمي معرفي له منطقه الخاص. هذا المنطق، وان لم يكن يرضخ للنص الديني على طول الخط، يطرح نفسه من موقع ديني. ومن هذا

المنطلق يدعي أزلية الزمان واطلاقية المكان، معطياً حكماً مسبقاً عاماً لا يناقش لجنس النساء كافة. لنأخذ مثلاً بعض عينات ترهيبية تحذيرية: ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال.. الاثم حواز القلوب... لا يخلون رجل بامرأة الا كان ثالثهما الشيطان... النساء مصائد الشيطان، حبائل الشيطان، عار وعورة.. ان كيدهن لعظيم.. لا تقربوا النساء في المحيض.. المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان... لم يكفر من مضى الا من قبل النساء، وكفر من بقي الا من قبل النساء.. النساء سبب كل محنة.. النساء ذريعة ابليس..

هذه اللغة، تربط اطلاقية ذنب المرأة بالحرام الجنسي وفصل الجنسين. ولا تقوم على اعتبار الجنس محرماً افقياً يتساوى الجنسان فيه، بل تعتبره محرماً عامودياً الرجل فيه هو الاعلى والمرأة هي الادنى باعتبارها مصدر المدنّس (مصائد، حبائل، مغريات، غاويات الخ). وبالتالي فالمرأة التي هي في هذا المنطق نفسه متعة للرجل المدعو لنكاح ما طاب له من النساء بالحلال هي نفسها مصدر الشر وباب الفتنة للحرام؟ وهي في وضعها القهري هذا، مادة قهر مضاعفة، باعتبارها ملاذ الرجل المقهور لتعويض القهر عنده بممارسته للقهر عليها. فيما تعبر عنه الامثال الشعبية بالقول: الناس بتقتلني وانا بقتل مراتي... اللي ما يقدر على سراته يقوم على مراته الخ. لا يمكن لهذا المركب الثقافي الايديولوجي ـ الاعتقادي ان يتعايش مع المساواة في المسؤولية والحقوق كونه قد حدد ضحيته. وتتكشف ابعاده الترهيبية في تعبيراته المعاشية، اي في القوننة والتشريع، حيث يكتمل دور المرأة كأداة متعة، بالمرأة المنجبة القاصر العاملة السجينة المطيعة للرجل: للمرأة نصف الميراث ونصف شهادة الرجل، ناقصة العقل والدين، محرومة من امامتي الدين والدنيا، لا سفر لها الا مع محرم ـ رجل، لا خروج لها من البيت الا باذن، ضربها ونهرها مسموح، تختن للجم شهواتها وتحجب لستر الشهوة والعورة الخ.

في هذا المنطق، لا يمكن للمرأة ان تحظى بلقب «الصالحة» الا بقبولها دور موضوع متعة الرجل وخادمة الاهل والزوج، اي دور العبد المتواطىء مع سيده. هذا الدور، لا ينتقض او يمس بحال من امتيازات وسلطات الرجل، بل يؤكدها. ولا يكمل عقل المرأة وانما يشكل اعترافاً منها بعبوديتها.

لا يتوقف مفهوم الحلال والحرام عند الضبط العرفي الاجتماعي والديني، بل ينال القانون. كون تبلوره قد تم بعلاقة مع نشوء الدولة. وهكذا نلمس تواصلاً واستمرارية في معظم قضايا الجنسين في القوانين الوضعية. ولا غرابة في تلمس بصماته في قوانين الاحوال الشخصية والقوانين الجنائية المعاصرة. بالطبع معظم ما في التحديدات النصية القرانية ما زال محرم التناول، فجملة: «في ميراث ذوي الارحام مطلقاً للذكر مثل حظ الانثيين» موجودة في قوانين كافة الدول الاسلامية. والامر يتعدى ذلك الى الفقه والعرف في امثلة لا تحصى.

في القـرن الثـاني للهجرة سجل الرواة في كتب الحديث: «المرأة اذا خرجت من بيتها وزوجها كاره، لعنها كل ملك في السماء وكل شيء مرت عليه حتى ترجع».

اليوم، وفي قانون الاحوال الشخصية السوري (رقم ١٣٤ تاريخ ١٣ ـ ١٢ـ ١٩٧٥) المادة ٧ نجد: «يسقط حق الزوجة في النفقة اذا عملت خارج البيت دون اذن زوجها». وفي قانون التجارة اللبناني (المادة ١١): «ان المرأة المتزوجة مهما تكن احكام القانون الشخصي الذي تخضع له، لا تملك الاهلية التجارية الا اذا حصلت على رضى زوجها الصريح او الضمني».

وهذا غيض من فيض، لا حاجة لتأكيده باستشهادات من البؤس الوهابي والخميني في هذا الميدان. طالما يرهب المحرم جدتي البسيطة والسلفي وصولا الى «التكتيك التقدمي»... اعلى المجتمع واسفله بآن، أكان ذلك تواطئاً أو انتهازاً او قناعة، فان خيار جملة المرهوبين الاظلام.

• • • • • •

منشورات الجمل

للطباعة والنشر والتوزيع باليد

صدر حديثا :

١ ـ صحراء منتصف الليل	خالد المعالي
٢ ـ على ضفاف الجنون	جبار ياسين
٣ ـ كلمات	صالح العيارى
٤ ـ الجنس عند العرب	نصوص مختارة

منشورات الجمل

مختارات السفور